

ناصر المظلومين وملاذ الضعفاء.. عن تاريخ الفتونة في مصر

كتبه عماد عنان | 3 مايو, 2020



حين يغيب دور الدولة ويتتحي القانون عن العدل وتنتشر الفوضى، لا يجد الناس بُدًّا من خلق زعيم محلي أو قائد شعبي، يكون حصنهم في مواجهة البطش والطغيان، يدافع عن حقوقهم، ويزود عنهم وعن أرواحهم وممتلكاتهم، وفي الغالب يكون من بين عامتهم، يشعر بالألمهم ويتجزع مرارة فقرهم.

وفي التراث المصري انتشرت هذه الظاهرة بصورة كبيرة على مدار قرنين كاملين، الثامن عشر والتاسع عشر، وكان يلقب القائد الشعبي الجديد باسم “الفتوة”， حيث انتشرت في معظم ربوع مصر وضواحيها الفتوات، فنسمع عن فتوة بولاق والحسينية، فتوة الحارة، فتوة المولد، وغير ذلك من المسيمات التي لا تزال عالقة في أذهان الكثير من المصريين حتى اليوم.

وكان للفتوات محامد ومكارم كثيرة، بعيدًا عن التشويه الذي تعرضوا لهإعلامياً وسينمائياً على مدار سنوات طويلة مضت، وهو ما أوضحه سيد صديق عبد الفتاح في كتابه [“تاريخ فتوات مصر”](#)، فكانوا يحمون الضعيف ويجيرونه من بطش القوي، وينتصرون للمظلوم في وجه الظالم، بل إن الواحد

منهم قد يضحي بحياته من أجل الدفاع عن المقهورين.

ويذكر التاريخ المصري بعشرات القصص والروايات عن الفتونة ورموزها وتأثيرهم المجتمعي في إحداث التوازن وتعويض الخلل الذي أحدثه غياب السلطة الرسمية لا سيما في أوقات تفشي الفساد والإفساد، هذا بخلاف دورهم الوظيفي الكبير في الزود عن البلاد في مواجهة الاستعمار، وإن حاد بعضهم عن الطريق بعض الوقت وتحولوا شيئاً فشيئاً تحت سلطة المال إلى عصا في أيدي المحتلين والحكام الفاسدين لتقليل أظافر الشعب وضمان ولائهم ووأد أي صوت معارض.

نشأة تاريخية

في كتابه ["حكايات الشطار والعبارين"](#) يذهب المؤلف محمد النجار إلى أن نشأة الفتونة في مصر تزامنت رسمياً مع ميلاد دولة المماليك (1250-1517)، فحين انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة 1261، ألبس الخليفة العباسي، المستنصر بالله، ثياب الفتونة للظاهر بيبرس، ومنذ هذا الوقت درج سلاطين المماليك على إلباس الأمراء والأعيان ثوب الفتونة حتى القرن الرابع عشر.

وظلت الفتونة حكراً على الأعيان وعليه القوم خلال العصور المملوكي والعثماني، حتى ظهرت الجماعات الشعبية وتراجع دور الدولة فيما ظهر داخل الأحياء كيانات بديلة لحماية الناس، إلا أن هذا الأمر كان على مرأى ومسمع من السلطات والحكومات التي ساعدت على انتشار تلك الظاهرة.

وفي عام 1481 أنشأ الأمير المملوكي يشبك الدودار القبة الفداوية في القاهرة، التي تحولت مع مرور الوقت إلى مقر لاجتماع الفتوحات، ورغم تصاعد شوكتهم يوماً تلو الآخر، فإن الحكومة لم تتمكن من السيطرة عليهم، بل على العكس من ذلك كان الحكم يلجأون إلى فتوحات المناطق في بعض الأوقات للحصول على دعمهم ومساعدتهم في وأد بعض الحركات أو في أثناء الحروب والمنازعات.

الدكتور سيد عشماوي في كتابه ["الجماعات الهماسية النحرفة في تاريخ مصر الحديث"](#) يرى أن ظاهرة الفتونة كانت محصلة لظروف وأوضاع المجتمع السياسية والاقتصادية، لا سيما في نهايات العصر المملوكي، وظلت على وضعيتها تلك حتى عصر محمد علي، الذي استطاع أن يحجم تلك الظاهرة بقوة القانون.

غير أن الظاهرة عادت مرة أخرى في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين، مع نمو الجماعات الهماسية، حيث كانت تستعين بهم قوات الأمن المصرية للقبض على اللصوص والخارجين على القانون، غير أن العلاقة تبدلت بعد ذلك جراء بعض الذابح التي وقعت في مناطق بالقاهرة فقررت الشرطة قمع الفتونة والقضاء عليها بصورة كاملة.



في التراث الشعبي

التراث الشعبي العربي يزخر بالعديد من نماذج الفتونة، فنجد ذلك في سير علي الزبيق والظاهر بيبرس وألف ليلة وليلة، وإن تغيرت المرادفات المتعلقة بالفتونة مثل الشطار والعيارين وغيرهم، غير أن العامل المشترك بينهم هو التمتع بالحذق والبراعة وخففة الحركة وقوه البنيان.

ومن هنا يمكن القول إن الفتونة تعد صفة جامعة لأخلاقيات ابن البلد من حيث الكرم والإقدام ومساعدة الغير والزهد في الحياة، فهي تدل منذ البداية على أخلاقيات الفرسان والمجاهدين الذين يحملون هم فقراء مناطقهم ويضعون الحق نصب أعينهم، فلا يحيدون عنه مهما كانت المغريات، هذا بالطبع قبل أن يتغير الحال كما سيأتي ذكره لاحقاً.

وتعد سيرة علي الزبيق على سبيل المثال واحدة من أكثر السير تجسيداً لتلك الظاهرة، فالرجل الذي يتسم بالقوة والمهارة والحيلة، متفوقاً على أقرانه من شطار بلدته، كان نصيراً للمظلومين، لا يسكت عن الحق، ولا يداهن الظلم حتى إن كان من أهل السلطة، فتحول إلى بطل مرموق يتحاكي الصغار والشباب ببطولاته.

مقاومة الاستعمار

لم تقف مآثر الفتوات عند الدفاع عن المظلومين من بني الأحياء التي يقطنونها، بل شاركوا في حماية الوطن بعد ذلك، في مواجهة الاستعمار والاحتللين، حيث حملوا لواء المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي عام 1798، حين قادوا الرببة الشعبية للتصدي لجنود نابليون بونابرت الذي ضاق بهم ذرعاً، مما

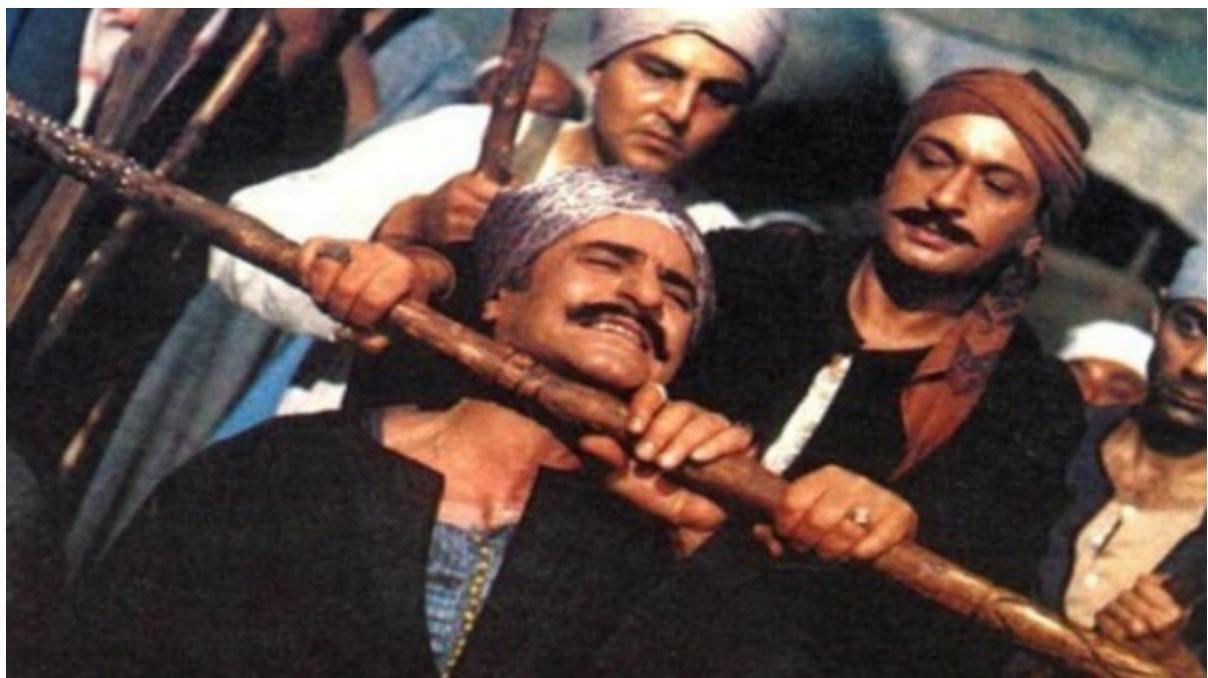
دفعه لأن يطلق عليهم اسم (الحشاشين البطالين).

وحيث اشتعلت ثورة القاهرة الأولى ضد الاستعمار الفرنسي، كانت معظم أحياء العاصمة المصرية تخضع لسلطة وإمرة الفتوّات الذين أظهروا مقاومة باسلة، سواء في ثورة القاهرة الأولى أم الثانية، وهنا يذكر المؤرخ علي مبارك في كتابه "[الخطط التوفيقية](#)" أن الفتوّات أصابوا نابليون بالجنون بسبب كثرة الشغب والمقاومة ضد جنوده، وكان يتربص بهم لكنهم كانوا على قدر كبير من الحنكة والذكاء.

أما [عبد الرحمن الجري](#) فيروي في مذكراته أن أماكن إقامة الفتوّات في الأحياء الشعبية في القاهرة بالإمام الشافعي والسيدة زينب، تحولت في زمن الحملة الفرنسية إلى معقل للثوار والمقاومة، كما كانت نقطة انطلاق لتخطيط وتنفيذ العديد من العمليات الثورية ضد المحتلين.

وشيئاً فشيئاً تبدل سلوك الفتوّات وتغيرت ملامحه، مع بداية الاحتلال الإنجليزي لمصر عام 1882م، حيث تحولوا من مدافعين عن الفقراء في مواجهة بطش السلطة إلى عصا بيد الحاكم لتأديب الشعب، فعندما أيقن الإنجليز خطر الفتوّات ودورهم في وأد الحملة الفرنسية، سعوا إلى السيطرة عليهم عبر شرائهم بالمال.

وبالفعل نجحت تلك الإستراتيجية في نزع الشرعية الشعبية للفتوّات، وتحولوا إلى أذناب للإنجليز في الأحياء، فبدأوا في فرض الإتاوة على المعدومين، ومارسوا البطش والطغيان، وظلوا هكذا حتى رحيل الإنجليز، وحينها بدأت السلطات المصرية في ملاحقتهم والقضاء عليهم مرة أخرى.



الفتوة في السينما

ما كان لظاهرة كتلك أن تمر مرور الكرام على السينما المصرية، فما تحمله من قصص مشوقة وحكايات مسلية تعد مادة خصبة لإنتاج العشرات من الأعمال الفنية، أفلام ومسلسلات، تتطرق إلى هذه المرحلة الثرية من حياة المجتمع المصري، ومن ثم استمرت تلك الأعمال حتى وقتنا الحالي، فهنالك أعمال درامية في الموسم الرمضاني الحالي تتناول ذات المرحلة على رأسها مسلسل "الفتوة" الذي يعرض على قناة "الحياة" المصرية.

ومن أبرز الأعمال التي زخرت بها سجلات السينما المصرية عن الفتوة: "الشيطان يعظ" بطولة نور الشريف وفريد شوقي وعادل أدهم، الذي تم إنتاجه عام 1981، و"المطارد" بطولة نور الشريف ومجدي وهبة وأنتج عام 1985، و"سعد البيتيم" بطولة أحمد زكي وفريد شوقي وأنتج 1985.

هذا بخلاف العديد من الأعمال الأخرى منها "شهد الملكة" 1985 و"الحرافيش" 1986 و"التوت والنبوت" 1986 و"الجوع" 1986 و"أصدقاء الشيطان" عام 1988، إضافة إلى بعض المسلسلات والأعمال الدرامية والروايات الأدبية التي تناولت تلك المرحلة التاريخية والمجتمعية المهمة كذلك.

اللافت للنظر في تلك الأعمال جميعها أنها التزمت بنسيج درامي واحد، يعتمد على فساد الفتوات، فتببدأ بحالة القهقهة والذل المفروضة على الفقراء، الأمر الذي يستفزهم فيخرج من بينهم رجل قوي ينتصر لحقوقهم في مواجهة البطش، فيتحول إلى فتوة المنطة وزعيمها الشعبي، لكن سرعان ما يتسلل الفساد والاستبداد إليه بعد ذلك حتى يأتي غيره ويكمّل المسيرة وهكذا.

وهكذا تمثل الفتوة أحد أبرز مكونات الوجودان المصري في القرنين الثامن والتاسع عشر، تلك الظاهرة التي ما زالت تأثر بأسماع وقلوب المصريين حتى يومنا هذا رغم مرور تلك السنين، حيث يجد فيها الشعب العديد من القيم والمعاني المفقودة في الواقع المعاش الذي تبدل خريطةه بصورة دفعت الكثير للحنين للماضي.

غير أنه في العقود الأخيرة انحدرت الفتوة من عرش المعاني السامية والرسائل النبيلة إلى مستنقع البلطجة وابتزاز الناس عبر ترهيبهم واستغلال نقاط ضعفهم، فظهرت جيوش عدة من البلطجية تتجاوز أعدادها الآلاف، ومع الوقت تم توظيفها لخدمة أهداف سياسية وأمنية للنظم الحاكمة... وهذا ما سيتم التطرق إليه تفصيلاً في مادة قادمة.

رابط المقال: <https://www.noonpost.com/36900>